الأدب الجزائري بين الحضور والغياب:
"دراسة إحصائية لقصيدة بكر بن حماد"

د: محمد بلحسين
المركز الجامعي تيسمسيلت

إن الاتجاه إلى بناء وترميم الذاكرة الوطنية غدا سمة بارزة لكثير من الباحثين والمثقفين في السنوات الأخيرة، وتعد اللغةُ وخاصةً الأدبيةَ منها أحدَ أهم القنوات الكافلة لالتقاط حفريات تلك الذاكرة، لذا أصبح البحث والتنقيب في الأدب الجزائري مشروعا وطنيا لا عملا نقديا وأدبيا فحسب، كما كان في السابق.

غير أن هدف الباحث حول الأدب الجزائري لا ينبغي أن يقتصر على المحلية بل لا بد من القفز إلى مرحلة أعلى تكفل له حضورا في المدونة التراثية للأدب العربي كافة، وتلك في حد ذاتها معضلة قبل أن تكون مطمحا، فإن قضية المتن والهامش أو الحضور والغياب تحكمت قديما وحديثا في اصطناعها على ما نراه ظروف مختلفة من التعقيد بمكان، منها سلطان الذائقة ومركزية الثقافة وتحيزية التصنيف، فلا عجب لما نرى الأستاذ شوقي ضيف وهو مصري يعقد لتاريخ الأدب في مصر مجلدا ضخما، فيما يقارب صفحات ما خصصه لأدب الشام والعراق معا، وليس هذا ثلبا في صنيع ضيف بل إنه خدم تراث وطنه وعلى أهل كل قطر أن يبادروا إلى مثل صنيعه في منافسة منتجة لا تراشق عقيم.

من هنا وحينما رأينا ضيما يتسلط على أدبنا الجزائري القديم من جهات شتى وبصوركثيرة ليس هذا محل بسطها، أردنا أن نسهم بقسط من المباحثة نرجو أن يدفع نحو تغيير هذه الصورة الزائفة ورسم المشهد كما كان ينبغي، فقد عانى أهل المغرب قديما قبل اليوم من التهميش ومن المركزية المشرقية، وما زالت تلك المعاناة تلقي بظلالها على المغاربة حتى اليوم، فابن هانئ الأندلسي له جولة أدبية في الجزائر، غير أننا نتفاجأ فنلفيه في تاريخ الأدب المصري لشوقي ضيف[1]، على أنه كان معدودا في مدونتنا قديما من أهل المغرب، حتى سمي "متنبي المغرب"[2]، فيقع ذلك رغم أن جولته في مصر كجولته في الجزائر، وتلك إشكالية أخرى تتعلق بدراسة الأدب القديـــم وتصنيفه في ضوء القطرية المعاصرة، وابن بسام كتب الذخيرة صارخا بأهل قطره الذين يراهم سببا رئيسا في مجلبة التهميش، فيقول:"إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوعَ الحديث إلى قتادة، حتى لو نعقب تلك الآفاق غراب، أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القَصِيَّة، ومَناخُ الرِّذِيَّة، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظني منهم ذلك، وأَنفتُمما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرةٌ لهذا الأفق الغريب أن تعود بُذُورُه أهلة، وتصبح بحاره ثَمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما صيعوا العلم وأهله، ويا رُبَّ محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري ! مَنْ قَصَرَ العلمَ على بعض الزمان؟ ! وخصَّ أهلَ المشرق بالإحسان؟ !"[3]

لذا كانت دراستنا هذه تهدف بطريقة دقيقة إلى قلب معطيات التاريخ حيث أخذنا قصيدة بكر بن حماد التاهرتي في هجاء عمران بن حطان لما أثنى على عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي – عليه السلام–، وقمنا برصد حضورها في مدوناتنا التراثية على اختلافها زمانا ومكانا وتخصصا، فخلصنا إلى نتيجة مفادها أن شعرا جزائريا كان حاضرا وبقوة في تراثنا لكن مؤرخ الأدب المعاصر يخطئ بصره هذه الحقيقة التاريخية، فيتغاضى عنها ويهملها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فإن قال قائل بأن هذه قصيدة واحدة لا يمكن الاكتفاء بها للبرهنة على حضور الأدب الجزائري في التراث، فنقول هذا نموذج له ما يعقبه ويليه مثل القصيدة المنفرجة وغيرها.

لكن قبل الشروع في مقاربتنا الإحصائية نشير إلى خطوات هذه الدراسة التي نستهلها بالكلام عن بكر بن حماد ثم سرد قصيدته وقصيدة عمران بن حطان، ثم نسرد نتيجة الرصد الذي قمنا به مصممين لها بطريقة تصنيفية دقيقة، ومِنْ ثَمّ ننتقل إلى عقد قراءة في النتيجة.

1- استشهاد الإمام علي بين بكر وعمران

لا ريب أن مقتل الشهيد أمير المؤمنين الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- كان فاجعة في ضمير الأمة الإسلامية، ومصيبة عزى بها كل مسلم أخاه، غير أن الشواذ من المتطرفين لا يخلو منهم زمان ولا مكان، فبالإضافة إلى ابن ملجم اللعين الذي تولى كِبْرَ الجريمة، نجد من يسبل عليه المدائح والثناءات جراء فعلته النكراء، فهذا عمران بن حطان الشاعر الخارجي الشهير يمتدح ابن ملجم الـمُرَادِي بأبيات أثارت الحمية الإسلامية حيث يقول فيها[4]:

لله دَرُّ المرادِيِّ الذي سفكـت**كفاه مهجة شـر الخلق إنسانـا
أمسى عشية غشاه بضربتـه **مما جناه من الآثام عريانـا
يا ضربة من تقي ما أراد بهـا ** إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانـا
إني لأذكره حينا فأحسبـه ** أوفى البرية عنـد الله ميزانـا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم ** لم يخلطوا دينهم بغيا وعدوانـا

كانت هذه الأبيات مثيرة لقلب كل مسلم، فانبرى لها كثير من الشعراء بالمعارضة والنقض، غير أن المناقضة التي كتب لها الشهرة والقبول هي تلك التي قدمها شاعرنا بكر بن حماد التاهرتي، الذي ما زال اسمة مرتبطا ببلدة من عمق القطر الجزائري تاريخيا وجغرافيا، والحق أن بكرا كان شاعرا مبرزا نال ثناء الكبار كأبي تمام وكفاه به[5]، غير أنه ما زال يعاني الهضم في حقه، فشوقي ضيف لما كتب تاريخ الأدب في قسمه الخاص بالجزائر جعل بكرا من شعراء الهجاء، وكأنه لا يحسن سواه، رغم أنه أي ضيف أشار إلى توزع شعره بين كافة الأغراض المعروفة آنذاك[6]، غير أن شهرته دَوَّتْ في الآفاق حينما انتصر للشهيد علي بن أبي طالب عليه السلام- في قصيدة تذيب الأكبادَ شهقاتٍ وزفراتٍ، وتحرق القلوب كمدا وغيظا، يقول فيها[7]:

قل لابن ملجم والأقدار غالبـةٌ ** هدمت ويلك للإسلام أركانـا
قتلت أفضل من يمشي على قـدمٍ ** وأوّل النّاس إسلاما وإيمانـا
وأعلم النّاس بالإيمان ثمّ بمـا ** سنّ الرّسول لنا شرعا وتبيانـا
صهر الرّسول ومولاه وناصـره ** أضحت مناقبه نورا وبرهانـا
وكان في الحرب سيفا ماضيا ذَكَرًا ** لَيْثًا إذا لقي الأقران أقرانـا
ذكرت قاتله والدّمع منحـدرٌ ** فقلت سبحان ربّ العرش سبحانا
إنّي لأحسبه ما كان من بشـر ** يخشى المعاد ولكن كان شيطانـا
أشقى مُرادٍ إذا عدّت قبائلهـا ** وأخسر النّاس عند اللّه ميزانـا
كعاقر النّاقة الأولى التي جلبـت ** على ثمودٍ بأرض الحجر خسرانـا
قد كان يخبرهم أن سوف يخضبـها ** قبل المنيَّـة أزمانا وأزمانـا
فلا عفا اللّه عنه ما تحمّلـه ** ولا سقى قبر عمران بن حطّانـا
لقوله في شقيّ ظلّ مجترمـا ** ونال ما ناله ظلما وعدوانـا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يا ضربةً من تقيّ ما أراد بهـــــــــا ** إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانـــا
بل ضربة من غويّ أوردته لظـــــــى ** فسوف يلقى بها الرّحمن غضبانـــا
كأنّه لم يرد قصدا بضربتـــــــــــه ** إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانـــــا

وقد لقي بكر بن حماد الثناء على قصيدته وما زال يلقى، فمن ذلك قول الإمام ابن السُّبْكي في طبقات الشافعية: "لقد أحسن وأجاد بكر بن حماد في معارضته فرضي الله عنه وأرضاه"[8].

2 - رصد حضور قصيدة بكر بن حماد في المدونة التراثية:

تلك هي القصيدة النموذج نرصد هنا كيف حضرت في التراث باختلاف الحقول المعرفية والحقب الزمانية، فنرتب هنا بعض المصادر التي ذكرت القصيدة أو بعضا منها مبينين بعد كل مصدر القرن والحقل الذي كتب فيه، كل ذلك في الجدول أمامك، على أن نوثق القصيدة في المصدر المذكور في الهامش:

المصدر التراثي	المؤلف	الحقل المعرفي	القرن الهجري
مروجالذهب[9]	المسعودي	التاريخ	القرن الرابع
الاستيعاب[10]	ابن عبد البر	التراجم	القرن الخامس
الحماسة المغربية[11]	التادلي	الأدب	القرن السادس
الجوهرة[12]	البري	السيرة	القرن السادس
الكامل[13]	ابن الأثير	التاريخ	القرن السابع
نهاية الأرب[14]	النويري	الأدب	القرن الثامن
الوافي بالوفيات[15]	الصفدي	التراجم	القرن الثامن
البداية والنهاية[16]	ابن كثير	التاريخ	القرن الثامن
فتح المغيث[17]	السخاوي	مصطلح الحديث	القرن التاسع
خزانة الأدب[18]	البغدادي	الأدب	القرن الحادي عشر
لوامع الأنوار البهية[19]	السفاريني	علم الكلام	القرن الثاني عشر
سمط النجوم العوالي[20]	العصامي	التاريخ	القرن الثاني عشر
مطالب أولي النهى[21]	الرحيباني	الفقه	القرن الثالث عشر
أضواء البيان[22]	الشنقيطي	التفسير	القرن الرابع عشر

3- قراءة في عملية الرّصْد:

بعد أن تم لنا رصد حضور قصيدة بكر بن حماد في تراثنا القديـــم، يمكن أن نقرأ في الجدول أعلاه عدة إشارات من بينها:

الاستمرار الزمني للقصيدة منذ القرن الرابع وهو القرن الذي تلا وفاة شاعرنا(**296**هـــ) بقليل حيث يذكر المسعودي(ت**345**هـــ) قصيدته في "مروج الذهب"، ثم يتوالى ذكرها في أغلب الحقب التالية حتى العصر الحديث.

كما نلاحظ أن المصادر التي ذكرت القصيدة متنوعة فلم تقتصر على الأدب فحسب، بل منها ما هو في الأدب ومنها ما هو في التاريخ والتراجم والسيرة وعلم الكلام والتفسير والفقه ومصطلح الحديث، ما يعكس الصدى الكبير الذي أحدثته القصيدة وصاحبها، على الرغم من أننا لم نقصد إلى الاستقصاء بل أخذنا عينة عشوائية، حسب المكتبة الإلكترونية المتاحة للبحث، وإلا فمن أراد التقصي أكثر فسيقف على ما يزيد نتائجنا تأكيدا ومزاعمنا توثيقا.

وهذا الصدى لم يكن غفلا من الإشارة دائما إلى القطر الذي ينتمي إليه الشاعر إذ كان مقرونا باسمه فما يذكر إلا وتذكر "تاهرت"، ما يعطي للأدب الجزائري جغرافيته فضلا عن تاريخيته المشار إليها سالفا.

هذا فضلا عن أن أكثر تلك المدونات تنتمي للمشرق العربي، ما يعني أن الحضور انتقل إلى مركز الثقافة العربية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالحاصل من كل هذا التأكيد مرة بعد أخرى على مظلومية الأدب الجزائري الذي حلّق قديما أيما تحليق، وطار صيته في الآفاق، وما قصيدة بكر إلا شاهد من شواهد كثيرة تصلح لمثل عمليتنا الإحصائية، التي نراها فاتحة لإعادة النظر في التصنيفات السابقة ولسياسة "التمتين والتهميش" الجائرة، فههنا دعوة للباحثين من أجل التشمير لقلب الموازين.

قائمة المصادر والمراجع

1-ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي/عصر الدول والإمارات/مصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ص**243.**

2-ينظر مثلا: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، **1971**، ج**4** ص**424.**

3-ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، الطبعة الأولى، **1981**، ج**1** ص**12.**

4-ينظر: إحسان عباس، شعر الخوارج، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، **1974**، ص**147.**

5-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي/ عصر الدول والإمارات/الجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ص**159.**

6-ينظر: المرجع نفسه، ص **158**إلى **164.**

7-القصيدة مذكورة في عدة مصادر باختلاف يسير، فينظر مثلا: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، **1964**، ج**1** ص**288.**

8-المصدر نفسه، ج**1** ص**288.**

9- المسعودي: مروج الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر، الطبعة الخامسة، بيروت، **1393**هـ / **1973**م ، ج**1** ص**341.**

10-ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت،الطبعة الأولى، **1412**، ج**3**، ص**1128.**

11-أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاويالتادلي: الحماسة المغربية، تحقيق محمد رضوان الداية،دار الفكر المعاصر، **1991**، ص**79.**

12-محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني المعروف بالبري: الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، دار الرفاعي، الرياض، **1403**، ص**308.**

13-ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، **1965**، ج**2** ص**104.**

14-شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، **1424** هـ/**2004** م، ج**20** ص**132.**

15-صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: هملوتريتر، دار النشر فرانز ستانير، ألمانيا، **1381**هـ/**1962**م، ج**6** ص**113.**

16-أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي،الطبعة الأولى، **1408** هـ/**1988** م، ج**9** ص**65.**

17-شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: فتح المغيث شرح ألفية الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، **1403**هـ، ج**3** ص**135.**

18-عبدالقادر البغدادي،خزانةالأدبولبلبابلسانالعرب،تحقيقمحمدنبيلطريفيوإميلبديعيعقوب،دارالكتبالعلمية، بيروت، **1998**،ج**5** ص**343.**

19-شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، الطبعةالثانية – **1402** هـ/**1982** م، ج**2** ص**350.**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

20-عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة، **1379** هـ، ج**2** ص**8**.

21-مصطفى بن سعد السيوطي الرحيباني: مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، **1961**م، ج**18** ص**355**.

22-محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، **1415** هـ/ **1995** م، ج**3** ص**126**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com